الأزياء والمعتقدات

الكولونيل شربل بركات

بعد الهجمة الأصولية التي بدأت منذ حرب لبنان وتطورت مع الزعيم الإيراني آية الله خميني والردة التي تبعتها على كل الأصعدة هناك، عادت ظاهرة الأزياء النسائية "الضاربة في الاحتشام" إلى أخذ موضعها في عالم الأزياء. وقد كان دور حزب الله في أول نشأته واضحا جدا في هذا الشأن، إذ كان الحزب، وبالتوجيهات الإيرانية التي تمثلت يومها بالحرس الثوري الإيراني، معلم ومدرب الحزب آنذاك، يدفع لكل فتاة أو امرأة تلبس الحجاب أو "الثياب الضاربة في الاحتشام" مبلغا وقدره مائتين وخمسين ليرة لبنانية شهريا، ما يوازي مائة دولار أمريكي أي الحد الأدنى للأجور. وإذا تصورنا الوضع الاقتصادي اللبناني بين ١٩٨٣ و١٩٨٤ حيث بدأ التدهور يتضح شيئا فشيئا، نعرف كيف انتشرت هذه الظاهرة وبسرعة في الأرياف أولا وفي الأحياء الشعبية كالضاحية الجنوبية ثم تبعتها إلى بعض الأحياء الأخرى. ولم يتطلب هذا الدعم المالي استمرارية لأنه وخلال سنتين فقط كانت القوة العسكرية والعمليات الإرهابية لحزب الله هي التي ستثبت المظهر العام وتتحول "المساعدة" المادية إلى ميزانية للعناصر "المجاهدة" التي تمنع "الانحراف" وتتأكد من الالتزام بالمظاهر و"المبادئ"، ولم يعد بالمستطاع لتلك النساء اللواتي لبسن الحجاب أن يخلعنه لأي سبب لأن ذلك سيعتبر خروجا على "المبادئ" التي تحميها قوات الحزب (أمد الله بيدها). وهكذا بدأت ظاهرة "الثياب المحتشمة" تغزو شيئا فشيئا عالم الأزياء ويضطر أصحاب المحلات في بيروت وطرابلس وصيدا وغيرها إلى مجاراة الشارع الذي "كش" عن محلاتهم من الضائقة الاقتصادية من جهة ومن الظاهرة الجديدة التي حاولت أحيانا قوات الحزب فرضها على أصحاب المحلات بمهاجمتها كأهداف تتحدى وتخالف "المبادئ" والنظام المفروض إذا هي تابعت عرض الثياب المصنفة "غير محتشمة" والتي كانت أساس تجارة هؤلاء. وقد سارع بعض التجار وكالعادة لركب هذه الموجة وفتح فروع "للثياب الإسلامية" في الأحياء التي يكثر فيها تواجد الحزب، وكانت هذه لفتة دعمها الحزب ماديا لكي يفرض شيئا فشيئا "ثقافته" المتكاملة ونظرته إلى الأمور.

في تلك الحقبة التي تسارعت فيها الأحداث وتبدلت الظروف السياسية والعسكرية عدة مرات لم يلفت ذلك التغيير المراقبين ولا أعطوه أهمية، فما همهم إن سترت "خديجة" أو حسرت "زينب" وما هو تأثير ذلك على مجريات الأمور؟

إن ذلك التحول في الأزياء الذي رعاه حزب الله كان مهما جدا، وهو ولو لم يعطه أحد أهمية في البدء، فقد جعل الشارع "المتأسلم" يفرض نفسه على النخبة السياسية والاجتماعية، فإذا بنا نرى الجهة المناهضة لحزب الله في الطائفة الشيعية والتي كانت تسير برؤى ومبادئ الأمام موسى الصدر، تضطر لمجاراة حزب الله في الأزياء وتصبح سيدات المجتمع الشيعي المعروفة بانفتاحها ومركزها الاجتماعي وأخلاقياتها ولا حاجة لها للتظاهر أو المغالاة، مكبلة بتلك القيود التي فرضها حزب الله ومشروعه الإيراني المتشدد. ونتساءل هنا هل إن هذه الظواهر، وبدون الرجوع إلى أهميتها السياسية، هي ظواهر توحيد وطني كالذي تنادي به حركة أمل أم إنه خطوة نحو الجمهورية الإسلامية التي ينادي بها حزب الله؟ وإذا كان الجواب أن تلك ظواهر طبيعية وهي عودة إلى الأصول، نتساءل إذا عن التفريق بين الناس "العاديين" و"الأصوليين" ونضطر ساعتها لأن نترحم على

طروحات سمير جعجع للحلول السياسية الفدرالية التي كانت ستفرق بين اليوميات لكل فئة من اللبنانيين وتجمع الصالح العام لكل الفئات اللبنانية، حتى لا نترحم على طروحات التقسيم التي رمي بها المسيحيون في أول الحرب خوفا من أن يتبنوها فيصبح لهم في لبنان وطنا، هو دولة المقهورين التي خاف من قيامها الرئيس الأسد، يزيدهم تعلقا به إذ يؤمن التجانس والحماية والانطلاق الغير مقيد لا بأصولية ولا بزي ويجاري العالم المتحضر بالانفتاح والتطور والعصرنة.

وما حدث في لبنان انتقل إلى العالم الواسع خلال العقد الماضي وأصبحت شوارع نيويورك وبرلين وباريس وروما ولندن وغيرها تعج بالمتحجبات وفتحت محلات فيها لتؤمن تغطية هذه السوق الجديدة.

ظاهرة الثياب المحتشمة هذه ليست جديدة وظاهرة الخصوصية أو التمييز بالثياب ليست هي الأخرى محصورة بالإسلاميين أو الأصوليين منهم، ففي أميركا وكندا لا يزال بعض المسيحيين الأصوليين كال"مانونييت" وغيرهم يعيشون على الطريقة "الطبيعية" أو البدائية في الأزياء ووسائل الإنتاج وطرق العمل والتعامل. ويعتبر "السيخ" بلحاهم وشعورهم التي لا تقص وتجدل تحت العمامات الكبيرة من المحافظين التقليديين على مظهرهم تماما مثل الدروز في لبنان والجوار الذين يصرون على الشروال والقلوسة أو اليهود المتدينين الذين لا يقصون سوالفهم ويربطون بخصورهم بعض الخيطان التي لها معان دينية وتميزهم قبعاتهم وأشكال الثياب، ولكل هؤلاء أزياء لنسائهم أيضا تتميز عن أزياء النساء في حضارات أخرى، ولا نريد أن نعيب على أي شعب أو فئة مظهرها وثيابها والشكل التي تحب أن تخرج به على الناس فهذه كلها خاصة بها، ولكننا إذ نقبل للغير أن يرتدي ما يشاء نطلب منه فقط ألا يفرض فرضا هذا "الإنتقاء" وألا تصبح الثياب وبالتالي بقية التصرفات المحببة أو المرفوضة من إحدى الفئات تطبق قسرا على الباقين، وكما يحق لكل شعب ودين أن ينتقي ظواهر معينة تساعده على التمييز، عليه أن يعترف للآخرين بحقهم أيضا في هذه على الأقل. وإذا كانت وسيلة التعبير هذه عن نظرة إلى الحياة والواقع وتعلق بتراث وثقافة، إذا لم نرد أن نسميها حضارة، فإن شعوبا تحب أن يميزها عن الآخرين مظهرا آخر قد تقدسه هو حرية الرأي والتعبير الذي طالما رافق أبناء هذا الجبل اللبناني ووحد تطلعاتهم وجعلها، وعلى اختلافهم وتنوعهم، ظاهرة تكاد تكون مشتركة تحلت بها الطبقات والفئات على اختلافها.

اليوم وعندما يفرض كل شيء بالقوة ينتفض اللبنانيون ولو لم يخرجوا إلى الشارع، ويرفضون داخل نفوسهم الشكل المستورد من "الأزياء" و"الموض" التي لا تصلح أبدا لأن تمارس في بلد الأرز، وإذا كان يقال لكل جواد كبوة ومقابل كل طلعة هناك نزلة، فإن على ذوي الشأن أن يتعظوا وما يفرض بالقوة لن يصبح زيا يفاخر به الناس بل عبئا لا بد لهم من التخلص منه، فلم تصنع الجبة الراهب ولا منع الحجاب العهر... والعظة لمن اتعظ...